نقدنا المعاصر بين الواقع والتطلع

د. عبدالباسط بدر

في نقدنا العربي الحديث تيارات شتى، تكاد تنشئ مذاهب أو مدارس نقدية ذات قواعد وأصول محددة، فهناك التيار النفسي الذي يحاول أن يطبق قواعد مدرسة التحليل النفسي التي بدأها العقاد، وهناك التيار الجمالي الذي اتضح في كتابات روز غريب وميخائيل نعيمة وسهير القلماوي وغيرهم، وهناك التيار الإيديولوجي، الذي توضح في كتابات سلامة موسى ومحمود العالم وعبد العظيم أنيس ولويس عوض وزكي نجيب محمود وصلاح عبد الصبور.. وغيرهم.

ولاشك في أن وجود هذه التيارات كلها في نقدنا العربي المعاصر دليل على حيوية هذا النقد واتصاله العميق بروح العصر، وتواصله مع أجندة النقد العالمية وامتداداته الفكرية.. غير أن وراء هذا المظهر مظهرا آخر يثير تساؤلات كبيرة وخطيرة، هذا المظهر هو التأثير الهائل للنقد الغربي بمدارسه المختلفة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار في نقدنا العربي الحديث، واختلاط شخصية نقدنا الحديث بملامح غريبة عنه تكاد تفقده ملامحه الشخصية، والأخطر من ذلك كله أن بعض هذه التيارات يحمل انتماءات فكرية تتعارض مع قيمنا وعقيدتنا وكل منحنيات فكرنا العربي الإسلامي.

وعندما يكتب نقادنا المعاصرون أو بعضهم عن هذه المذاهب والمدارس ويمتلئون بقيمها ويحسبون أنهم يأخذون منها القيم الفنية التي لا تصطدم مع أصالتنا - وهم في ذلك واهمون كل الوهم لأن القيم النقدية في النقد الحديث لا تنفصل إطلاقا عن أسسها الفكرية والفلسفية - عندما يفعلون ذلك تسري خيوط دقيقة وخطرة من تلك الفلسفات والعقائد، وتؤثر في تصوراتهم ومواقفهم النقدية، وتربطهم من حيث يدرون أولا يدرون بالفلسفات والعقائد المنحرفة التي صدرت عنها تلك المذاهب النقدية.

وعندما يمارس هؤلاء النقاد نشاطاتهم النقدية يطبقون تلك القيم بكل ارتباطاتها الفنية والفكرية، ويتدخلون في الساحة الأدبية ويغيرون عددا من موازينها، ويوجهون الأدب إلى التأثر بالقيم التي يحملونها، ويطاردون الأعمال الأدبية المخالفة، ويبنون مذاهب أو مدارس نقدية موازية للمذاهب والمدارس الغربية التي صدروا عنها - ويسهمون - من ثم - في حقن الشخصية العربية الإسلامية بكل الأمراض المعدية التي حملتها إليها المدنية الغربية..

إذا كان النقد العربي الحديث في قطاع كبير منه ظلا للنقد الغربي بكل قيمه الفكرية والفنية فما مستقبل شخصيتنا الأدبية ؟

وإذا كان هذا النقد قد حمل - فيما حمله - نقدا عقديا قد أثبت حضوره - مستوردا من أصول غربية - واستطاع أن يؤثر تأثيرا سيئا في ساحاتنا الأدبية، فماذا عن المواجهة العقدية ؟

أليس من الضروري أن ينهض نقد مغموس بعقيدتنا الإسلامية أو متأثر بها على الأقل، ليواجه التيارات الوافدة، ويحفظ شخصيتنا من الذوبان وضياع الملامح ؟

ألم تتجمع مسوغات منهج نقدي عقدي ينهل من الفكر الإسلامي والتصورات الإسلامية والمواقف الإسلامية؟!

في ظني .. بل في يقيني أنها تجمعت، وازدحمت .. وأننا إن لم نستجب لها ونعكف على قيمنا وتراثنا ونصل واقعنا بجذورنا فإن النقد المتأثر بالغرب، أو لنقل النقد الذي هو ظل للغرب سيحتل الساحة الأدبية قاطبة، ويعمل بقوة وهدوء على مسخ شخصيتنا الأدبية وتحويلها إلى ظل هزيل للشخصية الأدبية الغربية بكل متناقضاتها وأمراضها.. ■